علماؤنا

كيف يشتغلون لبناء العلم

ان العالم الذي اصفه في مقالي هذا ليس مما ابتدعه فيرتا طرائس الشاعر وخلقها . بل يوشك ان يكون من مستحدثات كل امة من الامم الاخرى .

قضى هذا العالم حياته في خدمة العلم وتحقيق مسائله والتأليف فيه . وقد ورث هذا الميل من آبائه فأحب ان يورثه ابناءه في السابعة عشرة من عمره فلم يفلح .

وكما ذكر صاحب « الطبيعيات » في كتبهم ان الاجسام او المواد قسمان « موصل رديء » و « موصل جيد » يمتاز الاول ما تتثاقل فيه الحرارة ببطء . والآخر ما تتنقل فيه بسرعة — كذلك الحال في بعض الاشخاص . فمنهم من ينقل ملكات آبائه واستعدادهم العلمي الى ابنائه ومنهم من لا ينقل . والاول يصح ان نسميه « موصل جيد » والثاني « موصل رديء »

وصاحبنا الذي نحكي عنه هو من القبيل الاخير . فانه مع ما أوتيه من سعة العلم وبراعة في تحصيله — لم يورث ابنه هذا الميل والاستعداد . فكان كسواه من افراد الامة . منطوياً على العزيمة . وهل ان ضعف الميل في ذلك الفتى امر جبلي فيه او انه عرض من سبب الاسلوب الذي جرى عليه ابوه في تربيته وتثقيفه ؟ لا اعلم .

وربما كان الباري اشد ما يعني به اذا اطال روحه واعمى لاتمام الحديث :

قيل لرجل : والد توبخ ابنك لاقل هفوة . وتنتهره على ابسط الخطأ . وقد ترى الشاب ليس بك ان تخاطبه بما يخاطب به عادة من كان في مثل سنه .

فقال : انه يعرف هذا . ويعرف مبلغ تأثير التوبيخ العلني في تقويم اخلاق الناشئين . ولكن هناك ضرورة تستدعي العدول عن هذا الاصل في التربية الى اصل آخر اجل واسمى .

ولما استوضح الامر منه قال : انه كان يؤدب ابنه على صوابه في السر . فكان لا يزجره ولا يؤنبه . ولما اخذ يحس بحرارة صاحبه الولد يحاسب نفسه ويصلح سيرته .

قالوا : ولكنك تشتغل لامر تافه لاعلاقة له بما تقول . فقد سمعناك تو بخ مدّ وضع الكرسي في غير الموضع الذي تريد ان يضعه فيه . وهذا مما لايحسن بحال من الاحوال ان يوبخ عليه . لاسيما وهو لايهم الغير الذي وقر في نفسك من لزوم وضع الكرسي في هذا المكان دون ذاك .

فتخلص الاستاذ من الجواب على هذا الاعتراض الى وصف ذكاء ابنه . وصفاء ذهنه . وانه يفهم ويحفظ مايلقى عليه بسرعة زائدة . وقد حفظ مرة كتاباً صغيراً في قواعد اللغة الفارسية وحذق جميع مسائله في وقت قصير . ثم قال : لكن ابني مع هذا الذكاء النادر كسول لايهتم بحفظ دروسه . ولايصبر على المطالعة . ولو عمل لكان في التابعين الاولين . وعد في مقدمة الطلاب الناجحين .

ثم قال : وانني لااطيق ان ارى ابني جاهلاً وان اعيش انا واياه تحت سقف واحد . وقد اعيتني الحيلة في تعليمه . ويخطر لي انه اذا وصل الى سن العشرين وبقي على ماهو عليه من الكسل والجهل احلته الى الخدمة . وصنفت بدفع البدل النقدي عنه . او انني ارسله الى مكاتب الاسالة . حيث يعفى التلامذة من الخدمة العسكرية . واخذ يصف مايلقاه من عناء هذا الامر وان ابنه انغص عليه طيب عيشه . ولذيذ حياته . قال الراوي : فخشمت تفهمي لقول الاستاذ . ورثيت لحاله . وقلت له ارى ياسيدي ان حياتك اثمن من ان تكدر صفوها بمثل هذا . وان ابنك اذا لم يكن فيه استعداد وميل لطلب العلم . فاختبر ميوله الاخرى لتوجهه الحياة ودعه يشتغل في العمل الذي يحسنه ويميل اليه بطبعه . فاذا كان يميل الى التجارة والكسب فشجعه لسلوك هذا السبيل . واذا رأيته يميل للدخول في سلك موظفي الحكومة فليفعل . فان ذلك اجدى من ان تكلفه مالاطاقة له به من التحصيل .

فارتد وجه الاستاذ من سماع هذا الكلام . وقال : ان جميع ماقلته انت اعلمه انا وانك الآن لم تدر ما اقول : لما قلت لك ان ابني على جانب عظيم من الاستعداد والذكاء . وانه يحفظ ويفهم مايلقى عليه بسهولة وانه في ساعة واحدة حذق مسائل اللغة الفارسية التي لايدركها غيره في بضعة ايام .

فقال الراوي : قلت بلى ياسيدي الاستاذ فهمت كل ماتقول ولكنك انت لم تفهم مقصدي مما اقول :

ان قوة الذكاء والفهم غير قوة الميل والرغبة . فاذا لم تتوفر في الطالب هاتان القوتان

لايقال عنه انه مستعد للتعلم . ولا ذو قابلية للعلم . وان ابنك ذكي سريع الفهم . لكنه كسول ضعيف الميل . فهو اذن قد توفرت فيه قوة دون قوة . الا ترى ان كثيرين من المتعلمين هم على العكس من ابنك ! ترى الواحد منهم كثير الرغبة والميل للتحصيل العلم متوفراً على الدرس والمطالعة جهده . لكنه ينقصه قوة الذكاء والفهم المتوفرة في ابنك . فيضيع عمره ولا يستفيد شيئاً من العلم . والحالي عن كان كذلك — اي كان ذكياً لكنه كسول لا يجتهد لكنه بليد — ان يدع طلب العلم ويأخذ في عمل آخر ينفع به .

فاعترض الاستاذ وقال : من اين اثبت هذه الفلسفة ؟ يريد اني تكلمت بكلام غير مفهوم . وهو ما يريدون بكلمة الفلسفة احياناً . ثم عاد الاستاذ لشرح ما أوتيه ابنه من ذكاء وقوة حافظة وغير ذلك من المواهب والمزايا . هذا بالطبع الرأي عندنا . وموضع العبرة فيه ان ذلك الاستاذ قد درس على زعمه علوم الاولين والآخرين لكنه نسي علماً واحداً لم يوفق لتحويله مع انه في اشد الحاجة اليه . ذلك العلم هو علم التربية الذي هو فرض عين على كل اب عاقل . ومعلم مدرسة . واذا زعم الاستاذ ان هذا العلم درسه في جملة ما درس . نقول له ولكنك لم تكن ذا استعداد وقابلية للانتفاع به . فيرد علينا بانه ذو استعداد وقابلية لانه ذكي وسريع الفهم . فنضطرب حينئذ الى السكوت والصبر .

ومثل الاستاذ كثيرون يريدون ان يلزموا اولادهم بالتحصيل . ويكونون ضعيفي الحيل واقرب الا يحزنون ان تمضي الايام سبهللا . ويكون من جرة ذلك ان فقدت الوقت الذي يمكنهم فيه التدرب على الكسب وتوفير الثروة ليقضون حياتهم في البطالة والخمول وضيق ذات اليد .

ونود لو ان اولياءهم يعلمون من اول الامر ان لا سبيل لهم من مثل هذا الوقت . ويخطوا بهم الا بايقانهم من العلم الرياضيون من العمل . والعلوم على الانتفاع بيومهم الخاصة . واختيار مواهبهم الفطرية .

واكثر ما يكون هذا الاخفاق في بيوت العلم القديمة عند الآباء فهي يحرصون على تنشئة ابنائهم في العلم . وتعويدهم التحصيل منذ الطفولة . ويلزمونهم اياه بكل وسيلة . ولا يكون في كثير منهم ميل اليه . واستعداد له . فيقضون اعمارهم فيه . من غير ان

يكون لهم نصيب منه • سوى القيافة الخاصة • عمامة وطيلسان • وجبة واسعة الاردان •

وهناك سبب آخر يحمل الآخرين على الاشتغال بطلب العلم من دون ان تتوفر فيهم القابلية له فلا يتأتى حظ منه : اولئك الذين يريدون الفرار من الخدمة العسكرية وتضيق ذات يدهم في الغالب عن البدل النقدي فيشتغلون في التحصيل لهذا الغرض •

وقد يقع بين هؤلاء افراد يصبحون نخراً لقومهم • ونبراس هدى في وطنهم • اما الآخرون وهم معظم الطلاب فيحذقون من العلم القدر الذي يجيهم من الخدمة العسكرية ثم لا يلبثون ان يشغلوا عنه فينسوه رويداً رويداً • ويكونون قد وصلوا الى سن يصعب معها مزاولة عمل اوصناعة فيعيشون كلاً على اهليهم • يرمقون الرزق ترميقاً • ولو انصف هؤلاء انفسهم لما اشتغل بتحصيل العلم منهم الا من اوتي نصيباً من ميل واستعداد للطلب • ورزقاً يكفيه مؤونة الحاجة • والا فخير للمرء منهم ان يتعاطى عملاً يرتزق به عيشه • ويقيه من عار البطالة • ويمكنه من اداء البدل العسكري • او انه يقوم بهذه الوظيفة المقدسة • فانها من اشرف الاعمال لاسيما في وقتنا هذا • وقد اصبحت الحكومة دستورية • والجندي فيها مرقه في معيشته • موفور الحرمة في اداء خدمته •

ولو بلغ طلاب العلوم الاسلامية في احدى المدن مائة طالب مثلاً لكان منهم عشرة يشتغلون المناصب الدينية : مثل مفتي • وموظف محكمة • وكاتب صكوك • وعشرة آخرون اغناء عن الكسب بغنى والديهم • وعشرة سواهم اقدموا على الكسب قوة من ارادتهم وهمة نفوسهم • اما السبعون الباقون فيندون ويروحون في قومهم على غير الحالة اللائقة بحرمة العلم وكرامة اهله وقد تعود البطالة بعض هؤلاء الى انتياب اماكن اللهو • ويزل الحال بآخرين الى تناول الصدقات • والهبوط على طعام الاموات •

واما نود ان يكثر هذا العنصر فينا معشر المسلمين : عنصر علماء الدين ولكنا نود لهم قبل كل شيء ان يكونوا موضع احترام العامة واجلال الخاصة ليكون ذلك ادعى للانتفاع بهم • والثاني منهم • وان يكون لهم من غزيرة الاذعان وعمال الامة رواتب تساعدهم على اداء وظائفهم • والظهور في مظهر الجمال بين ابناء قومهم • ثم يكون